وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين وإذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنَّك الخشوع أو التخاشع على أن تصعر خدك وتعرض وجهك فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم وإنما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب.[. . .] وكذلك اللحن إن مرّ بك في حديث من النوادر . . . (ابن قتيبة، كتاب *عيون الأخبار*)

مقدمة

من المعروف أن السير الشعبية عامة، والسير الشعبية بلغات العرب خاصة، قلّما تحظى باهتمام الباحثين الجامعيين. وقد يتساءل القارئ عما دعا باحثين، يعملان في جامعتين فرنسيتين (يصب أولهما اهتمامه في ميدان اللغة والنحو واللسانيات، وتصبه ثانيتهما في حقل أدب التراث) إلى نشر إحدى مخطوطات سيرة بيبرس[1]، محتفظين بنصها على ما هو عليه، دون تنقيح ولا تصحيح، رغم مخالفته قواعد اللغة الفصحى وأصولها بشكل متواتر.

فنقول لذلك القارئ إن قيمة أدب التراث الجمالية والفكرية والحضارية بغنى عن التعريف، إلا أنه خطاب وضعته الخاصة لمخاطبة الخاصة، وكثيرا ما عبرت فيه عن ازدرائها للعامة : ألم يشبه عبد الحميد بن يحيى الكاتب (أحدُ أهم مؤسسي نثر التراث، في رسالته المعروفة إلى الكتّاب) سياسةَ العامة بسياسة البهائم ؟

وقد بدا لنا من الطريف والمفيد أن نعير هذه العامة شيئا من اهتمامنا، مازجين، على طريقة الأدباء، الجد بالهزل. فقد أردنا أن نتعرف إلى طريقة العامة في استيعاب الأخبار التاريخية لتحويلها إلى أحداث خيالية خارقة. وأردنا كذلك أن نتوقف عند أساليبها السردية وعلاقتها باللغة (على سبيل المثال كيف يُمزَج الفصيح بالركيك والعربي بالأعجمي والإعراب الصحيح باللحن، إلخ . . .). وأردنا أخيرا التعرف إلى قيمها الأخلاقية والاجتماعية كما تعبر عنها بنفسها وليس كما تصورها

١– كذا في المخطوطة. وهو الملك الظاهر بيبرس. وسنذكر ترجمته في القسم التالي من المقدمة.

لنا وتنقلها إلينا الخاصة. وقد كان من بين أهم الخلفيات النظرية التي دفعتنا إلى القيام بهذا العمل فكرتان أساسيتان. أولاهما أن تحديد مفهوم الأدب في عصرنا هذا بحاجة إلى التوسيع إذ نرى أنّ كلاً من حقلَي الأدب التراثي والأدب المعاصر ينقسم إلى شطرين ألا وهما أدب الخاصة، الذي يحظى بالعناية التي يستحقها، وأدب العامة، الذي يُهمل عادة رغم ما يستحقه من اهتمام لأنه يكوّن جزءا مهماً من التراث الأدبي بلغات العرب ويشكل أدبا بكل معنى الكلمة؛ خاصة أن التفاوت في المستويات اللغوية وأنواع اللغة المستعملة لا يقتصر على السير الشعبية العربية وإنما هو من خصائص الأدب العالمي في مراحله وأنواعه كافة.

أما فكرتنا المسبقة الثانية فهي التالية : الحضارة العربية الإسلامية (شأنها في ذلك شأن كل الحضارات الإنسانية) تحوي العامة في رَحِمها بقدر ما تحوي الخاصة. فبناء على ذلك، لا بد أن تكون نظرة العامة إلى أهم التساؤلات والمخاوف المصيرية في أدبها الشعبي، نظرة توأمية لِما تعبر عنه الخاصة في جواهر نصوصها. وخلافا لمن يرى في الأدب الشعبي منافساً خطيراً لأدب التراث يزعزع أصوله ويقلل من شأنه ويبدل قيمه، يبدو لنا أن الأدبين ما هما إلا وجها حضارة واحدة حمل كل منهما صوتها إلينا على طريقته الخاصة.

لقد بدا لناشري السيرة بناء على ذلك (كما أشارا إلى ذلك في بداية هذه المقدمة) أن المحافظة على نص المخطوطة بحذافيره من مقتضيات عملهما. فقررا الاحتفاظ بنص السيرة على ما هو عليه، وإن كانت وردت فيه بعض الألفاظ والعبارات التي ربما لا تنسجم مع اللياقة والأدب، وذلك لسببين :

السبب الأول علمي بحت، يعود إلى علاقة الباحث بالنص، فمهمة الباحث الناشر نقل النص إلى القارئ، لا إعادة كتابته، ولا تبديل محتوياته، ولا الحكم عليه أدبياً أو أخلاقياً. وقد اقتدينا في هذا المجال بما قام به من سبقنا، شرقاً وغرباً، إلى نشر المخطوطات في ميدان الأدب الشعبي، بل في ميدان الأمهات التي تعتبر من كنوز التراث العربي. فلم يخطر على بال أحد من محبي الأدب واللغة والتراث أن يحرف أو يحذف في كتاب *فقه اللغة* للثعالبي، أو في *رسالة البغال* للجاحظ، أو في *كتاب أخلاق الوزيرين* للتوحيدي، أو في *كتاب ذم الهوى* لابن الجوزي،

الخ. إلا أننا لن نتذرع بموقف السلف الصالح فحسب ولا بعلاقة الباحث بالنص وحدها وإنما نعتمد كذلك على علاقة الباحث بالقارئ، إذ يبدو لنا أن القارئ الذي نتوجه إليه هو القارئ البالغ العاقل الواعي، الذي سيتمتع بقراءة السيرة دون أن تهزه هفوات هذا البطل أو خزعبلات ذاك. هذا القارئ الذي لا يمنعه لسانه المهذب من معرفة ما في اللغة والتخاطب من مستويات مختلفة، والذي سيهتم، إن دعت الحاجة، بردع من قد يتأذى من قراءة السيرة عن قراءتها.

والسبب الثاني هو أننا لو أفردنا بعض الكلمات، دون سواها، بمعاملة خاصة، حاذفين إياها مثلاً من النص ومعوضين عنها بفراغ، أو بأية علامة أخرى، لأعرناها من الاهتمام ما لا تستحق، بل وكان غيابها من النص بحد ذاته بنانا يشير إليها ويدعو إلى تعويضها بالمخيلة وما لها من شطحات، فنزيد خرقاً ونحن ندعي الرتق.

فلنتعرف الآن إلى الطريقة التي نُقلت بها إلينا سيرة الملك الظاهر بيبرس عبر القرون.

إنّ مخطوطات السيرة عديدة، يعود أقدمها – على حد علمنا – إلى القرن السادس عشر الميلادي (مخطوطة مكتبة الفاتيكان). وأكثر هذه المخطوطات محفوظ في مكتبات أوروبية مختلفة. وقد طبعت الرواية المصرية للسيرة باللغة العربية بعد تنقيحها في الربع الأول من القرن العشرين وأعيد طبعها. أما النسخة العربية المتداولة التي يستطيع القارئ الحصول عليها اليوم، في شوارع دمشق أو القاهرة، فهي تلخيص مفصل للسيرة، فقط لا غير. وينبغي أن نشير إلى أن قسماً من مخطوطة حلبية للسيرة قد ترجم إلى اللغة الفرنسية[٢].

تم نسخ المخطوطة التي ننشر هنا جزأها الخامس (وهي في مكتبة المعهد الفرنسي للشرق الأوسط، فرع الدراسات العربية بدمشق) في بداية عام ١٩٤٩. وقد قام بنسخها محمد أديب المكّاوي. ويعدّ نص هذه المخطوطة، الدمشقية الأصل، مطابقا لرواية آخر حكواتي مارس مهنته على الطريقة التقليدية في العاصمة السورية[٣].

٢– ترجمه وعلق عليه جورج بوهاس وجان باتريك غيّوم.

٣– قد يقع الزائر في بعض مقاهي دمشق اليوم على «حكواتي» إلا أن وظيفة هذا الأخير أصبحت سياحية أكثر منها اجتماعية.

وإضافة إلى هذا، فالمخطوطة كاملة، نعني بذلك أن الكراريس كافةً متوفرة من ناحية، ومن ناحية أخرى أن سيرة بيبرس المتخيّلة تامة.

بعد أن صممنا على نشر هذه المخطوطة دون تشويهها بهدف تصحيحها، بدا لنا من الضروري إيجاد وسيلة مناسبة لتحويلها إلى كتاب مطبوع، سهل القراءة ومشوق، يتذوقه القارئ الناطق باللغة العربية أياً كانت لهجته أو لغته الأم. فرأينا من الضروري إدراج بعض التعديلات الشكلية والهوامش السفلية، وذلك وفقا للمنهج التالي :

١) من النص المخطوط إلى النص المطبوع

تقطيع النص إلى مقاطع

أدرجنا مقطعاً كلّما ورد في النص :

- قال الراوي، فتصبح قال الراوي يليها نقطتان.
- قال [وفاعلها الراوي]، فتصبح قال يليها ثلاث نقط.
- أما فلان، فقد وضعناها دائما في أول مقطع جديد.

وأضفنا مقطعا كلما نُقل نص رسالة قرأها أحد الأبطال.

وإضافة إلى هذا التقطيع أدرجنا في بعض الأحيان القليلة تقطيعا إضافيا كلما شعرنا بأن طول الفقرة المسرِف لا بد أن يثير ملل القارئ.

العناوين

ذكرنا جميع العناوين المرحلية التي أدرجها الناسخ في المخطوطة ولم نهمل إلا ما ورد في بداية بعض الكراريس من بسملة ومخاطبة للقارئ، المطلوب منه ألا يمزق النص أو يشوهه مهما كان رأيه فيه[٤].

٤- لقد رأينا أن هذه الملاحظات الهامشية وإن كان فيها المسلي أو المفيد لمن يدرس تاريخ النسخ، تبعدنا عن هدفنا.

علامات الترقيم

أدخلنا على النص علامات ترقيمية مختلفة، ينبغي أن نشير، قبل وصفها، إلى أن اختيارها قد تم انطلاقا من قراءة النص جهرا. على أننا لم ندخل أية علامة في الأبيات.

- النقطة (.)، كلما انتهت وحدة مفيدة مكونة من مجموعة وحدات متكاملة.
- الفاصلة (،) بين الوحدات المتكاملة المذكورة أعلاه أو في فواصل السجع.
- النقطة الفاصلة (؛) إذا انتقل متكلم من موضوع إلى آخر قبل أن ينتهي من الكلام، أو إذا قام شخص بفعلين متتاليين مرتبطين في هذا الإطار السردي دون أن تكون لهما صلة منطقية جلية.
- النقطتان (:) في حالات ثلاث : كلما تكلم أحد الأبطال، أو كلما نقل، وهو يتكلم، كلام غيره، وفي نهاية المقاطع التي يليها نص رسالة منقولة بحذافيرها.
- علامة الاستفهام (؟) : كلما طرح أحد الأبطال سؤالا.
- علامة التعجب (!) : عند التعبير عن التمني، أو اللعنة، أو القَسَم. أو عند استعمال صيغة التعجب. أو إذا بدا بشكل جلي أن معنى النص يهدف إلى إثارة الإعجاب أو الدهشة أو الاستنكار الشديد.

إضافة الحروف الناقصة في المخطوطة

- أضفنا في نهاية الفعل الماضي والمضارع الغائب في صيغة الجمع، كلما أهمل الناسخ كتابة الألف الفارقة، هذه الإشارة : [ا]. وذلك للتأكيد على أن الواو ساكنة. أي أن القارئ سيجد في الماضي : « فعلو[ا] » وفي المضارع المرفوع والمنصوب والمجزوم « يفعلو[ا] » وفقاً للاستعمال العامي. يعني ذلك أن الواو التي تظهر في نهاية الكلمات هي إما واو أصلية (مثلا : يتلو) وإما واو وضعت في محل الضمير (مثلا « معو » عوضا عن « معه »)

– أدرجنا بين قوسين من هذا الطراز [ ] حرفا في بداية الكلمة أو وسطها أو في نهايتها إذا كان الناسخ قد نسيه أو أهمله، كلما اعتبرنا أن الحرف ضروري لقراءة اللفظة المعنية (مثلا : [ا]لمجمع ؛ يتحا[د]ثوا) .

تبديل الحروف والإملاء

من خصائص المخطوطة أن نصها قائم بشكل واضح على « تأرجح » مستمر في الأصوات والإملاء بين خصائص اللهجة الشامية أو العامية المصرية واللغة العربية الفصحى؛ وإلى جانب ذلك تظهر أيضاً مفردات دخيلة (لغة الإفرنج، التركية، الفارسية . . .) وتراكيب ركيكة أو خاطئة تعبّر بها السيرة عن الرطانة المنسوبة إلى الأتراك . فبدا لنا أن نترك النص على ما هو عليه، لما يفتحه من أبواب للبحث ويطرحه من أسئلة حول اللغة وتطويعها في خدمة الأدب، واثقين بإمكان القارئ تقويم الأصوات (مثلا يفهم « صندوق » وإن كانت مكتوبة « سندوق ») ومدرجين حاشية سفلية إذا كان هذا التأرجح يؤدي إلى التباس (مثلا لما ورد في النص « راكد »، كتبنا في الحاشية السفلية : كذا . وهي : « راكض ») . وبناء على ذلك فقد اعتمدنا كتابة المفردات كما جاءت على يد الناسخ، محتفظين بالحركات الأصلية ولو كانت غير مناسبة لحركات الفصحى . من هنا مثلا كتابة الهمزة التي تخالف أحيانا قواعد كتابتها في اللغة الفصحى، أو لصق الألفاظ التي تكوّن بعض العبارات المصطلحة (مثلا : « اينعم » عوضا عن « إي، نعم ») . كما اننا احتفظنا بكتابة التاء النهائية (أتت التاء المربوطة أحيانا على شكل الهاء وأحيانا على شكل التاء المفتوحة، خصوصاً عند الإضافة) . كما احتفظنا بكتابة الياء النهائية على شكل الألف المقصورة . ولم نعتمد التصحيح في الحواشي السفلية إلا عندما لاحظنا أن الإملاء الذي اعتمده الناسخ يمنع القراءة السليمة أو عندما وجدناها تحوّل معاني الإشارات الدينية أو الاقتباسات القرآنية إلا في الحالات الجليّة (مثلا، كتابة : « الله واكبر » التي ترجع طبعا إلى : « الله أكبر ») .

الألفاظ الناقصة من المخطوطة أو غير المقروءة

واجهنا في حالات نادرة صعوبة في قراءة بعض الألفاظ. فأوردنا في النص عوضاً عنها، العلامة التالية : [. . .] ووضحنا في حاشية سفلية : كلمة غير مقروءة. وقد صادفنا أحياناً نقصاً طفيفاً في السرد (تبيّناه من تفكك الأحداث وبمقارنتها بالأحداث المقابلة في المخطوطة الحلبية). وقد أوردنا بين قوسين من هذا الطراز [ ] إشارة إلى وجود نقص في المخطوطة ولخصنا الأحداث انطلاقاً من السياق أو من رواية أخرى.

العبارات الدينية

كلما وردت عبارة دينية في النص بشكل عبارة اعتراضية، أدرجناها بين معترضتين (مثلاً : – ما شاء الله –)، أما إذا كانت العبارة من مكونات الخطاب فاعتبرناها جزءاً من أجزائه.

الأبيات

فيما ورد من أبيات، حافظنا على الرواية الموجودة في المخطوطة وإن كان البحر مكسوراً. وكلما استطعنا نسب الأبيات والربط فيما بينها وشعر التراث، ذكرنا مصادرنا في الحواشي.

ترقيم الصفحات

تتكون المخطوطة من مجموعة كراريس، ننشر عشرة منها في هذا الجزء. تحمل كل صفحة من نص السيرة المطبوع رقمين، يشير أولهما، وقد ورد في الزاوية العليا، إلى ترتيبها في الكراس المطبوع، ويشير ثانيهما وقد ورد وسط ذيل كل صفحة إلى رقمها في الكتاب. وقد أوردنا رقم ترتيب كل كراس في أعلى الصفحة الأولى منه بين قوسين من هذا الطراز [ ].